أثر التعاون

فى الإصلاح الاجتماعى

لحضرة صاحب السعادة الاستاذ محمد العشماوى بك

المستشار الملكى لوزارتى الأشغال والشئون الاجتماعية ونائب رئيس رابطة الإصلاح الاجتماعى

فلا هطلت علىّ ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا

تتسع الهوة فى أوضاع الحياة ومقوماتها بين مختلف الطبقات فى مصر اتساعا يتزايد مع توالى الأيام منذرة بخطر اختلال التوازن الاجتماعى والثقافى والاقتصادى على السواء وتعمل العوامل المختلفة على اتساع هذه الهوة وذلك لانعدام السياسة الثابتة التى تعمل على تحقيق التوازن وتوجيه تطور البلاد فى شتى مرافقها وجهة صالحة ؛ واقتصر الجهد على خطوات من الرأى مرتجلة نواجه بها كل مشكلة ونحل بها كل عقدة وقد تغلغلت سياسة الارتجال فى كل مرافق الحياة حتى أصبح الارتجال سياسة ثابتة .

فسياسة التعليم مرتجلة فى كل مراحله . فبالرغم من كون الأغلبية الساحقة من الشعب تتخبط فى ظلام الأمية والجهل و بالرغم من أن ميادين النشاط الاقتصادى والفكرى لمختلفة لا تزال بكرا تسمع صيحات متتالية من أوساط محترمة تتردد بالنذر وتجهر بأن عدد المتعلمين قد زاد عن حاجة البلاد . ونرى مشكلة تعطل المتعلمين تزداد تعقيدا ونرى المعاهد المختلفة تضيق بالوافدين عليها فتردهم عن الأبواب وتباعد بذلك بينهم و بين حقهم الطبيعى فى المعرفة ولم يفصح المسئولون عن سياسة التعليم عن نياتهم ولم تتبين البلاد فى أى طريق تسير ؛ هل آثرت ارستقراطية التعليم بفعلته وقفا على طبقة من الشعب تنعم وحدها بنور المعرفة وثمرة العلم ؛ أو أن العلم حق مشاع لكل فرد من أفراد الشعب فى حدود ملائمة تكفل تربية المواطن الصالح الذى يستطيع أن ينهض بالتكاليف العامة وتكاليف الحياة الخاصة فى هذا العصر الذى تعيش فيه وما يتمخض عنه هذا العصر من أحداث تطالعنا بوادرها ؟ وأغلب الظن أنهم لم يتنبهوا الى رأى ولم يضعوا سياسة .

وسياسة الاقتصاد القومى مرتجلة ، تعرض لنا منها كبريات المسائل فتعالج بحلول مرتجلة لا ترد غائلة ولا تسد حاجة ولا تكفل للانتاج القومى اضطراد نمائه واستقرار مرافقه واستغلال مالا يزال كامنا من كنوز الثروة الزراعية والمعدنية والصناعية .

وسياسة التموين مرتجلة فما اتخذنا للأمر عدته قبل تحرج الأمور فأصبحنا نعالج فى أحرج الظروف موضوع توفير القوت الضرورى والكساء الضرورى لأفراد الشعب ونعانى فى ذلك أكبر العنت دون أن نوفق إلى حل يكفل الطمأنينة و يرد غائلة الجشع .

وتشتد وطأة الغلاء يوما بعد يوم فى الحاجيات الضرورية للغذاء والكساء دون هوادة فى الوقت الذى تنتج فيه موادهما الأولية بقدر وفير .

وسياسة التشريع مرتجلة مع أن التشريع من أهم ضوابط الحياة فى مختلف صورها ومن أهم الحوافز لتوجيه النهضة وجهة صالحة وتجنيبها عوامل العبث والجمود والطفرة . فليست لنا سياسة مقررة فى تشريعنا لأننا لم نضع أسسا ثابتة لنوع المجتمع الذى يرتضيه المصلحون ونوع التطور الذى يجب أن تجتازه البلاد فى مختلف مرافقها لنصل لهذا الهدف المرسوم .

والنظرة الى الحياة متباينة ، فكان لتباين النظرة أثره فيما نلحظه من تردد فى خطواتنا نحو حياة كريمة مستقرة ، ويباعد بين وحدة النظرة فى نوع الاصلاح الذى يحتاجه تباين الثقافة فى أسسها العامة وطبيعتها وأهدافها وتفاوت المستوى الاجتماعى تفاوتا عظيما ، فعشنا فى حالة انقسام خطير أدى بنا الى تفرق الكلمة واضطراب الرأى وأصبحت البلاد تضم بين جوانبها معسكرين متحفزين للنضال دائما ، ووقف دعاة الاصلاح إزاءهما حائرين مترددين لا يتبينون طريق الحق ولا يهتدون الى سواء السبيل .

والمترفون فى شغل بأنفسهم وما يكفل لهم اضطراد حياة الدعة والاثرة ، والمثقفون ناعمون بثقافتهم لا يفكرون فيمن حرموا نعمة المعرفة ، ولا يشعر هؤلاء وهؤلاء بواجبهم نحو سواد الشعب الجاهل الفقير . والنظرة الفردية ، والشعور الفردى ، والمصلحة الفردية تطبع النفوس وتمتلىء بها القلوب فتباعد بيننا وبين النظرة الاجتماعية لمستقيمة التى تكفل مصلحة البلاد ومصلحة الجماعة على أساس من التعاون والتضامن . وتأثرت جميع تصرفاتنا بل تأثرت مرامى التشريع ومصادره بهذه النظرة فأصبحت معيارا لما تصدر عنه من بواعث وحافزا لما تنتهى اليه من رأى ، وضعف الشعور بالواجب فى نفوسنا بسبب سوء البيئة وانعدام التربية الدينية وضعف الوازع الأول الذى يحنبنا التردى فى مهاوى الرذيلة والاندفاع وراء شهوات النفس الجامحة والخضوع المطلق لسطوة المادة ومغريات المصالح الشخصية فى سبيل منفعة عارضة ونعيم باطل زائل وزهو فارغ .

وضعف فينا روح البر فلم يعد يحفزنا اليه شعور نبيل يثيره الاعتقاد الراسخ بأن الله قد فرض علينا فرضا أن يكون فى مالنا حظ للفقراء والمساكين وأن التضامن الاجتماعى يقتضينا هذا البر فيفيض منه على المحتاجين فضلة من نعم الله علينا فى مختلف صورها ، وأصبحت دوافع البر فينا توقع جزاء عاجل من أعراض الدنيا الزائفة أو الرغبة فى الشهرة والظهور بمظهر الجاه الأجوف والزهو الباطل .

وأضعف ما فينا روح التعاون . وهذا الضعف على خطره وسوء مغبته يبدو صارخا فى كل الطبقات وعلى الأخص فى طبقة المثقفين والمترفين ، فباعد بيننا وبين ما كانت عليه أوضاع حياتنا وروابطنا فى الحضر والريف منذ عهد ليس بالبعيد عند ما كان التعاون أظهر

صفات المصريين وكانوا يستعينون به على دفع الأذى وجلب المنفعة فيتعاونون فى أفراحهم ومآتمهم وفى حل مشاكلهم الخاصة وتعمير دورهم واستنبات حقولهم فهانت عليهم قسوة الحياة وأرزاؤها عند ماعاشوا فى ظل التعاون وما يحمله التعاون بين طياته من تراحم وتوادّ ؛ ثم تغير الحال فانصرف كل لنفسه ورغب كل عن نفع غيره ولم يأبه بدفع الأذى عن أهله أوجاره.

وساد هذا الشعور فتملك الجماعات والأفراد فى علاقتهم بالمحيط الاجتماعى الذى يعيشون فى أكنافه وصرفهم عن الحياة الاجتماعية القائمة على أساس من التعاون والتضامن يحيافيها الفرد فى خدمة الجماعة، والجماعة فى عون الفرد على احتمال الصعب وأعباء الوجود؛ وباعدت هذه الروح بيننا وبين مبادئ الإسلام التى قامت على التعاون والمؤاخاة فى أبعد حدودهما فكان التوازن فى أروع صوره وقام نظام الدولة الإسلامية فى فجر تاريخها المجيد على هذه الدعامات الانسانية القويمة.

ومما يلفت النظر أن روح التعاون قد انتابها الضعف فى الوقت الذى تقوم فيه جمعيات التعاون وتنتشر فى نواحى البلاد ، وفى الوقت الذى اشتدت الحاجة فيه إلى التعاون لمواجهة مشاكل الحياة العامة والخاصة صفا واحدا ؛ ولذلك بقيت فكرة التعاون بعيدة عن قلوبنا وأوضاع حياتنا بالرغم من قيام هذه الجمعيات، وحلت الجمعيات ذاتها من روح التعاون الحقة فطبعت بطابع المادية الصرفة وأصبحت فى حقيقة أوضاعها مطية لخدمة طائفة من أعضائها اتخذوا منها وسيلة ميسرة لإرضاء رغباتهم فى الكسب وغيره من المزايا التى كفلتها لهم هذه الهيئات، وانعدمت فيها كلها أو جلها رعاية الناحية الاجتماعية فتلاشت الناحية الانسانية الكريمة القائمة على التعاون على البر والتقوى ؛ وكاد المحيط الذى تعمل فيه هذه الجمعيات لايشعر لها بوجود أو نشاط، مع أن من شأن هذه الجمعيات لو قامت على أسس التعاون الحقة أن تحدث فى المجتمع المصرى ثورة معمرة، وأن تأتى بالمعجزات وأن تكون أكبر عامل على رفع مستواه . ومن الخير أن تنظم أوضاع الحياة كلها فى نواحيها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والصحية على قواعد من التعاون تتيح لكل فرد أن يأخذ نصيبه كاملا ميسرا من هذه الحياة الكريمة التى يهيئها له التعاون ؛ وسيبقى المجتمع المصرى متخاذلا منحل الأواصر ضعيف المستوى ، وسيبقى سواد الشعب ينوء بأعباء الحياة يعيش فى أكنافها عيشة الحرمان المادى والفكرى والصحى مايق التعاون كلمة فارغة تلوكها الألسنة وتتسمى بها بعض الهيئات وينظمها التشريع من غير أن تستشعرها النفوس وتؤمن بها القلوب .

ولا سبيل لذلك إلا إذا فهمت جمعيات التعاون رسالتها على وجهها الصحيح وعملت فى تحقيقها بشتى الوسائل التى توافرت لها وأحس الشعب أثرها فى تغيير أوضاع حياته واتجهت به وجهة جديدة تكفل له حياة كريمة ؛ وقام المفكرون من المصلحين بالدعوة للتعاون الحق يدرسون أسباب الانصراف عنه ويعملون لجمع الكلمة حوله وتكييف الحياة طبقا لأوضاعه واتخاذه سندا للإصلاح الاجتماعى الذى تنشده وطريقا لاهداف القومية التى تسعى إليها.

بهذه الرغبة التي تمثلها مبادئ التعاون ولتحقيق المعونة للأسر الفقيرة وتوفير الرعاية لطائفة من الشباب تعوزها الوسائل الضرورية لتنشئتها تنشئة صالحة، قامت "مبرة التعاون الاجتماعي" ووقف المشرفون عليها جهودهم لتمكينها من أن تقدم هذه الرعاية بقدر ما توافر لها من وسائل هذه المؤسسة جديرة بكل تشجيع فهي نواة صالحة لتمثيل فكرة التعاون الاجتماعي في أبرز صورها ولتنفيذها في أوسع نطاق وعلى أيسر سبيل إذا لقيت ما هي جديرة به من عون وتأييد يساعدان على نشرها واتساع الميادين التي ترتادها .

والأحياء الفقيرة وما تعج به من طوائف مختلفة اتحدت في ضيق مواردها وبؤس حالها أحوج ما تكون لمثل هذه المبرات تشع عليها بقبس من نور يضيء لها ظلمة الحياة ويغذيها بينبوع من ماء نمير يطفئ ظمأها ، وهي في الوقت نفسه بمثابة حقل اجتماعي للتجارب تشخص من طريقه العلة ويقدم بواسطته الدواء .

وهي دار للرعاية والدعاية تقوم بالإرشاد الاجتماعي والتهذيبي والرياضي وتقدم نماذج الغذاء الصالح لأفراد وأسر حرموا الرعاية والإرشاد وعاشوا في أوساط تتقلب في أكناف النعمة فكان بؤسها وصمة في جبين الحضارة وشاهدا على انعدام الشعور بعاطفة البر والتعاون فإذا لم يخفف من مرارة هذا البؤس كاد أن يطالعنا الزمن بثورة اجتماعية هدامة تذهب بالأخضر واليابس وتؤذن بسوء المصير :

ولم أر مثل سوق الخير كسبا ولا كتجارة السوء اكتسابا
ولا كأولئك البؤساء شاءا إذا جوعتها انتشرت ذئابا

وإني أهيب في ختام هذا المقال بمن منّ الله عليهم بنعمة المال أو الجاه أو العلم أن يرعوا هذه النعمة بتقوى الله في الفقراء واليائسين والمحرومين في هذا الوقت العصيب وأن يلبوا دعوة البر يؤدونه خالصا لوجه الله والوطن وسلامة نفسهم وراحة ضمائرهم . ولتكن التضحية بقدر من المال طريقهم الى النعيم الباقي والذكر الخالد .

وسلام على المحسنين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

محمد العشماوي